الفكاهة في شعر محمد الأسمر

الشاعر محمد الأسمر (١٩٠٠- ١٩٥٦م) واحد من الشعراء الكبار الأفذاذ الذين ظلمتهم شهرة غيرهم فقد كان هو وأقرانه محمود غنيم وعلي الجندي والعوض الوكيل ومحمد عبد الغني حسن وطاهر أبو فاشا ومحمد مصطفى حمام و عبد الحميد الديب ومحمد مصطفى الماحي من الجيل الذي أبدع أيما إبداع ولكن الساحة في الثلث الأول من هذا القرن لم تتسع إلا لشوقي وحافظ ومطران ، وفي الثلث الثاني من هذا القرن هاجت البشرية وماجت في حرب عالمية وتقلبات سياسية أثرت في الذوق العام والثقافة العامة فتدهورت مكانة الأدب والفن لحساب السياسة ، والتيارات الفكرية الجديدة .

وكان ما يجمع بين هؤلاء الشعراء الذين ذكرنا أسماءهم هو حبهم جميعاً للمرح والدعابة وارتباط بعضهم ببعض في صداقات خالدة بقيت ظلالها واضحة في آثارهم الشعرية ، والشاعر الأسمر ولد في دمياط في٦نوفمبر ١٩٠٠م وتعلم بمدارسها ثم انتقل إلى القاهرة وتعلم في مدرسة القضاء الشرعي ثم في الأزهر ، وعين بعد تخرجه موظفاً في مكتبة الأزهر حتى أصبح أميناً عاماً لها .وله عدة كتب ضمت مقالاته الاجتماعية وديوانان شعريان كبيران احتويا على أشعاره .

ولم يكن الشاعر الأسمر أسمر اللون ولكنه لقب بهذه التسمية لأسباب عائلية ، إذ يبدو أن هذا هو لقب عائلته . أما هو فقد كان وسيماً أبيض اللون وكان حريصاً على ارتداء الزي الأزهري حتى آخر لحظة في حياته .

ومن أشهر فكاهات الشاعر محمد الأسمر ما نشرته جريدة الأهرام تحت عنوان (ثلاثة جنيهات دعابة شعرية) وقصتها أن الشاعر محمد الأسمر أودع عند صديقه اليوزباشي " النقيب " عبد الحميد فهمي مرسي مبلغاً قدره ثلاثة جنيهات بصفة الأمانة واحتفظ بها الرجل في مكتبه وكان يعمل إذ ذاك أركان حرب وزارة الدفاع المصرية . واستبد القلق بشاعرنا محمد الأسمر وكتب إلى صديقه يحثه على بذل الجهد في المحافظة على جنيهاته الثلاثة فيقول :

(أعبد الحميد) وأنت امرؤٌ ... عرفتك من عنصر طيب
لنا عندكم مهجة أودعت ... لشهر الصيام على الأغلب
ولو أستطيع لأودعتها ... إلى رمضان على كوكب
فلا تغفف عينك عن حفظها ... ولا تنأ عنها ولا تلعب

وينبه شاعرنا صديقه إلى أنه يخشى على نقوده الغالية من أن تمتد إليها يد اللصوص المغامرين الذين يتفننون ويتحايلون ويبتكرون طرقاً مختلفة في سرقاتهم ولولا ثقة شاعرنا بما يتكدس في مكتب صديقه الضابط أركان حرب وزارة الدفاع من أسلحة لما استطاع أن يترك له مهمة حفظ جنيهاته الثلاثة :

فإني أخاف عليها النسيم ... وأخشى امتداد يد الأجنبي
ولولا السيوف ولولا الحراب ... لديك لما ساغ لي مشربي
معلقة ترهب السارقين ... وتبعث بالمنظر المرعب
ومهما يكن فحذار اللصوص ... حذار حذار ولا تغضب

فـــإن لهـــم حـــيلاً كلـــما تـــــــــذكرتها دارت الأرض بي

وبعد هذه الصورة الطريفة التي صور فيها الشاعر نفسه حائراً خائفاً تدور به الأرض كلما تفكر في الحيل التي يمكن أن يلجأ إليها اللصوص ، نجده يلح على صديقه في حفظ وديعته وأن يجعل الشك رائده مع كل ضيوفه :

وراقـــب ضـــيوفك يـــا صـــاحبي وحتـــى ذوي النســـب الأقـــرب
وراقـــب يـــديك ولا تعتـــب وراقـــب يـــديَّ ولا تعجـــب
وحـــاذر مـــن "الســـيد المرغنـــي" وإن كـــان فخـــر بنـــي يعـــرب
أبيـــت وجســـمي في منـــزلي وروحـــي وعقـــلي في المكتـــب
ووالله لا الحـــرص مـــن شـــيمتي ولا جمعـــي المـــال مـــن مـــذهبي
ولكنـــه مـــرض طـــارئ يـــزول وعـــدوى الغنـــى المتعـــب
ثـــلاث مـــن الـــورق العبقـــري لـــديكم ، وكـــيلي عليهـــا النبـــي
إذا علمـــت أننـــي ربهـــا بحـــثن ولا شـــك عـــن مهـــرب

وقد علق على هذه القصيدة الشاعران الأستاذ (عبد الحميد فهمي مرسي) والأستاذ (علي الجندي) فمما قال الأستاذ عبد الحميد :

تـــروح وتغـــدو إلى مكتبـــي كأنـــك تســـعى لقـــبر النبـــي
تحـــج إليهـــا لكـــي تطمـــئن عـــلى مـــا لجيبـــك مـــن مـــأرب
ولســـت أخـــاف عليهـــا ســـواك إذا مـــا تســـللت كالأرنـــب
فـــلا تجـــزعن ، ولا تهلعـــن ونـــم مطمئنـــاً ، ولا تتعـــب

ومما قاله الأستاذ علي الجندي :

ثـلاثٌ مـن (البنكنـوت) النفـيس ... تـــنفس عـــن تعـــب المتعـــب
أفي الحـــق أن يقتنـــي شـــاعر ... ذخـــائر في عامنـــا الأجـــدب ؟
ألم يكفـــــه أنـــــه بيننـــــا ... يحـــل محـــل (أبي الطيـــب) ؟
فيـا أسـمر العـين مـاذا دهـاك ... ومـا ذلـك الطمـع الأشـبعي
أتســمن والضرـــ قـــد شـــفني ... وتمـــزح والجـــوع قـــد جـــد بي
وتختـــال في ثوبـــك الأزهـــري ... وثـــوبي بـــال عـــلى منكبـــي
أعنـــي فـــإني أخـــوك الـــذي ... يفـــديك بـــالنفس والمنصـــب

ومن المعارك الفكاهية الكثيرة التي كان الأسمر يشعلها معركة خروف العيد وقصتها أن شاعرنا الأسمر كان قد طلب من صديقه القائمقام (العقيد) الشاعر عبد الحميد فهمي مرسي أن يعيره خروفاً في عيد من أعياد الأضحى التي جاءت خلال الحرب العالمية الثانية مع اشتداد الغلاء وارتفاع الأسعار، فبعث الأسمر إلى صديقه يقول :

عبـد الحميـد وأنـت معـوان إذا ... هـز الخـدين حبـال ود خدينـه
إن كـان ذو القـرنين عنـدك حـاضراً ... فابعـث بـه لنـرى ضـياء جبينـه
ولكـي يجـاوب – لـو يمأمـأ مثلـه ... في بيـت جـاري – مأمـآت قرينـه
ولـيعلم الجـيران أجمـع أننـي ... إن جـاء عيـد لم أضـق بشـؤونه
ولكـي يـراه مـن أسـاء ظنونـه ... بـدراهمي ، فأنـال حسـن ظنونـه

وليطمـــئن الـــدائنون ويعلمـــوا أني امـــرؤ يقضي ـــ جميـــع ديونـــه

ويؤكد شاعرنا لصديقه أنه لن يمس هذا الخروف المستعار بسوء ، بل سيسهر على تأمين سلامته من الذبح أو العدوان ، فكل ما يبغي هو أن يتباهى به كما قال سابقاً - أمام جيرانه، ودائينيه وأولئك الذين يسيئون الظن بقدراته المالية

وأنـا الأمـين عليـه وهـو بمنـزلي مـن كـل جـزار ، ومـن سـكينه

يمسي- ويصبح وهـو عنـدي آمـن من (فلفل) الطاهي ومن (كمونه)

فابعـث بـه (عبـد الحميـد) فإنـه شيء يـــرد إلـــيكم في حينـــه

لســنا نميــل إلى نعاجــك بــل إلى كـبش لـك التفـويض في تعيينـه !!

ثم حدث بعد ذلك أن اتصل القائمقام عبد الحميد فهمي بقريبه الأديب الكبير الأستاذ عبد العزيز سلطان وكان بينه وبين الشاعر الأسمر صداقة ومودة فبعث بأربعة خراف ، وأرسلها من محافظة المنيا بالصعيد إلى قريبه القائم قام عبد الحميد فهمي بحيث يعطى خروف لكل من الأسمر وعبد الحميد، ويعطى خروف لكل من الشاعرين علي الجندي ومحمد عبد الغني حسن وكانا قد طلباهما ووصلت هذه الخراف من المنيا متعبة قد نال منها طول الطريق وهدها السفر فظهر عليها الإعياء ولم تعد صالحة للتضحية بها فكتب الأسمر يسخر منها ويقول :

ويـح عبـد العزيـز أرسـل هـرا تٍ إلينـا ، وقـال عنهـا خـراف

لم تمأمـأ بـل نونـوت فضـحكنا ثـم قلنـا مـا ذلـك الإسراف

أهـدايا ، أم تلـك بعـض الرزايـا ؟ رب سـلم ونـج ممـا نخـاف

أربـــع أقبلـــت . فقلـــت خـــراف ... مـــا تـــراه العيـــون ، أم أطيـــاف ؟

ثم يذكر مصيبته في الحروف الذي حُصص له ، فهو خروف ضئيل تكاد العين لا تراه من فرط ضعفه فبينه وبين ما يعرفه الناس عن خراف الأرياف فارق كبير :

كـــان منهـــا لنـــا خـــروف عجيـــب ... هـــو مـــن فـــرط ضـــعفه شـــفاف
لاح كـالوهم بـل هـو الـوهم يمشي ... لا خـــروف جـــاءت بـــه الأريـــاف
هـــو بـــين الكبـــاش كـــبش صـــناعي ... وزيـــــف أدقـــــه الزيـــــاف
أثـــري مـــن عهـــد يوســـف موميـــا ... خلفتـــه لنـــا الســـنون العجـــاف
لـيس فيـه مـن الخـراف التـي نعـرف ... إلا القـــــرون والأظـــــلاف
كـــم تمنـــى أطفالنـــا أن يـــروه ... ورأوه ، فـــأنكروه وخـــافوا
أبصـــرته القـــدور عنـــدي فمالـــت ... ضـــاحكاتٍ وفـــرت الأضـــياف
خـذه عبـد الحميـد خـذه ، وحسـبي ... هبـــه حكـــماً أمـــا لـــه اســـتئناف ؟

أما الأستاذ محمد عبد الغني حسن الذي كان معروفاً بمجاملاته وخلقه الرفيع فلم يشأ أن يذهب مذهب الأسمر في السخرية ، بل مدح خروفه قائلاً :

وصل الخروف وقد حسبتك مازحاً ... فـــإذاك قـــد بالغـــت في تســـمينه
الله زينـــــه بكـــــل جميلـــــة ... وجميـــل صـــنعك زاد في تزيينـــه

ومما أبدع فيه الأستاذ محمد الأسمر تلك القصيدة التي جعل عنوانها (قربا مربط النعامة مني) وهو شطر بيت شهير قاله المهلهل بن ربيعة أثناء حرب البسوس

الشهيرة وكرره في قصيدته ، وقصة هذه القصيدة أن السيد الشريف مرغني الإدريسي شيخ السادة الأدارسة بالمغرب العربي - وهو سوداني الجنسية شريف النسب كان قد بعث إلى الشاعر الأسمر هدية من الديوك الرومية ، والتمر ، وقصب السكر وحوت كبير ، وأرسل هذه الهدية عن طريق صديقهما المشترك الشاعر القائم قام عبد الحميد فهمي مرسي ، فاستأثر عبد الحميد بالحوت وأرسل الباقي إلى الأسمر وبعد أيام مرض السيد المرغني وكان الأسمر قد عرف بقصة استيلاء عبد الحميد على الحوت فكتب إلى السيد المرغني يواسيه ويذكر ما صنعه عبد الحميد فيقول :

يا سليل النبي عوفيت مما ... بت تشكوه من أذاه الليالي
قال أشكو الأملاح قلت عجيب ... كيف يشكو الأملاح حلو الخصال
الصديق الكريم ، والعسل الصافي ... شهي الوداد ، عذب الخلال
والذي أرسل الديوك فقلنا ... أديوك أم تلك بعض الجمال
والذي أرسل العجيب من التمر ... نواه يباع بالمثقال
ولطيف الأعواد من قصب هش ... رماح وافت بخمر حلال

وهكذا يذكر الأسمر هدايا صاحبه المتعددة فتجيش نفسه بذكرى تلك الخراف الضعيفة التي أهداها لهم صديقهم عبد العزيز سلطان وكانت غاية في الضعف ، والهزال فكأنها النمال ، ثم يذكر لصديقه المرغني كيف استولى صديقهما عبد الحميد فهمي على الحوت :

لا كعبد العزيز وهو صديق ... حين أهدى الخراف مثل النمال

أو كعبد الحميد حين أتى الحو ... ت إلينا فسفه لم يبال
سفَّه سفةً فجاء عليه ... وهو فوق العشرين في الأرطال
هل رأيتم ، أو هل سمعتم بمزح ... مثل هذا في سابق الأجيال
ليت شعري إن كان ذلك مزحاً ... من صديق فكيف جِدُّ القتال ؟
(قربا مربط النعامة مني) ... إن خطف الصديق للحوت غال
(قربا مربط النعامة مني) ... سفَّ عبد الحميد رزق العيال

وحدث أن كان الأديب الدكتور سيد نوفل - الذي أصبح فيما بعد أميناً عاماً مساعداً بجامعة الدول العربية - يعمل سكرتيراً للدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف ، فطلب الشاعر محمد الأسمر منه أن يتوسط لدى الوزير لكي يعاون تلميذاً فقيراً في الحصول على منحة ليتعلم مجاناً - وكانت المجانية آنذاك بالاستثناء - ويبدو أن السيد نوفل قد تباطأ في تلبية رغبة الشاعر الأسمر ، فبعث إليه موبخاً وهو يستخدم بعض الألفاظ العامية للدعابة على عادة القدماء فقال :

يا سيد ياجعرُّ ... هل أنت حقاً سِكِرُّو ؟
إن كان ذلك حقاً ... فاصنع صنيعاً يسُّر
يا نوفلاني قل لي ... وأنت شيخ شخُّر
خلف الوعود حلال ... في الشرع أم هو نكر ؟
يا دلدلاً قد تدلى ... علام لا تستقر ؟
تهتز في غير شيء ... كأنما أنت زر

فلســــــت تنفـــــع يومـــــاً ولســــــت يومـــــاً تضرـــــ

محـــــــــــرنجم مزبئـــــــــــر مهلضـــــــم لـــــــيس غـــــير

لـــــــولا الـــــــوزير ولـــــــولا أني بصـــــــــــحبي بـــــــــر

ســــــــــمعت زأر قـــــــواف تبيـــــــت منهـــــــا تهـــــــر

فمـــــل إلى الصـــــدق وافعـــــل خـــــــيراً فـــــــذلك خـــــــير

وهكذا لا تنتهي دعابات الشاعر محمد الأسمر التي تفيض بها دواوينه، والتي تنم عن شخصية مرحة تتعاطى الفكاهة والدعابة طبعاً لا تكلفاً فتأتي معانيه مليئة بالروح الجذابة والظل الخفيف ، في إطار من ألفاظ عربية رصينة غير مبتذلة ، وهو في الوقت نفسه يبتعد عن الإسفاف والتدني اللدَين كثيراً ما ينزلق إليهما من يتفاكهون تكلفاً وطباعهم تأبى عليهم أن يكونوا خفاف الظل .